

التعريف والنقد

« روضة المدارس »

نشأتها واتجاهاتها الأدبية والعلمية

الدكتور محمد زكريا عناني

« هذه دراسة نقدية تحليلية لمجلة روضة المدارس المصرية ، أول مجلة ثقافية علمية تصدر في مصر في الثالث الأخير من القرن التاسع عشر ، فكثر في إصدارها علماء من أعلام النهضة الحديثة في بلادنا ، هما : علي مبارك ورفاعة رافع الطهطاوي .

وعندما صدر العدد الأول منها يوم السبت ١٥ من المحرم عام ١٢٨٧ من الهجرة ، الموافق إبريل سنة ١٨٧٠ ، كانت تطرح هذا السؤال الهام : على أي منهج يكون تحولنا الحضاري ؟ هل نعود إلى الماضي ونتمتع بالعيش في فردوسه المفقود ، ونقطع كل صلتنا بالحاضر ؟ أم نقفز إلى آفاق المستقبل ونقطع كل صلتنا بماضيها المجيد ونهمل كل موارثنا الروحية والحضارية ؟ وكان الجواب حاضراً ، تجسده شخصية رفاعة رافع الطهطاوي ، فهذا الرائد العظيم ثمرة ناضجة من ثمرات امتزاج الماضي بالحاضر .

بهذه المطور يقدم د. عبد العزيز الدسوقي دراسته عن مجلة « روضة المدارس » التي أنجزها بالإسهام مع الأستاذ محمد عبد الغني حسن .

وقبل أن نعرض لهذا العمل بالتحليل والنقد ، نود أن ننوه بالجهود العلمية والأدبية الأستاذ محمد عبد الغني حسن ، الذي يعد واحداً من أكثر العاملين في حقل الثقافة في مصر إخلاصاً ، وصفاء عبارة ، وسعة معرفة . وتقع هذه الدراسة في أكثر من أربعمائة صفحة من القطع الكبير ، تستهلها توطئة كتبها د. مهدي علام ، أشاد فيها بالعمل ، وتحدث في إيجاز عن نشأة المجالات الثقافية في أوروبا والشرق .

وتأتي بعد ذلك المقدمة التي وضعها الدكتور عبد العزيز الدسوقي ، وتعد بمثابة تحديد للموضوع ، وتعريف بالمنهج الذي اتبعه المؤلفان ، وتقسيمها للعمل فيما بينها ؛ فالأستاذ محمد عبد الغني حسن كتب البابين الأول والثالث ، أمّا د. الدسوقي فكتب الباب الثاني وشارك في الباب الرابع ، واستقلّ بكتابة المقدمة والخاتمة .

وأظنّ أنه لولا هذه الإشارة لحسب القارئ أن المؤلفين دجبا معاً كل فصول الكتاب مجتمعة ، ولما عرف أن كلاهما استقل بكتابة قسم معين (وإن كان الملاحظ ، مع ذلك ، أن الهوامش لا تظهر ، على نحو عام ، إلا في الباب الثاني وفي بعض فصول الباب الرابع ، ففعل كاتب هذه الفصول ذات الهوامش ، هو نفسه كاتب الباب الثاني) .

والباب الأول يتناول « روضة المدارس وما حولها » ، ويقدم أول ما يقدم فضلاً عن « ملامح العصر » - عصر إسماعيل - من خلال الحديث عن الحركة الثقافية آنذاك ، متمثلة في التعليم وفي تكوين الجمعيات العلمية ، مثل جمعية المعارف ، وفي ظهور المجالات العلمية من قبيل مجلة « يعسوب

الطاب » و « روضة المدارس » .

وهكذا يقودنا الحديث إلى « مولد روضة المدارس » تحت نظارة رفاة بك ، مدرس الإنشاء بمدرسة الإدارة والألسن ، وهو ابن رفاة الطبطبائي نفسه . وفي هذا الفصل تحليل لافتتاحية العدد الأول ، وهي ، على أهميتها ، لا تحمل توقيع كاتبها ، وقد تضاربت حولها الأقوال ، فذهب د . أحمد أحمد بدوي إلى القول بأنها من إنشاء رفاة (انظر « رفاة الطبطبائي بك » ط ١ ص ٦٧) . ومال إلى هذا الرأي الأستاذ محمد خلف الله أحمد (في « معالم التطور الحديث في اللغة والأدب » ١٤/١) والأستاذ عمر الدسوقي (في كتابه « في الأدب الحديث » ط ٥ - ٧٩/١) وغيرهم ، ولكن الأستاذ محمد عبد الغني حسن - كاتب هذا الباب - يذهب إلى القول بأن الافتتاحية من إنشاء علي فهمي بدليل ما جاء في ثناياها من أن علي مبارك « أحال على الفقير مباشرة تحريرها ، ومناظرة ما يلزم لتحريرها » ، ومباشر تحرير « الروضة » هو علي فهمي ، كما مر بنا .

ويتعرض هذا الباب كذلك لمجلس تحرير المجلة ، وطريقة تبويبها ، كما يعرض لـ « لغة روضة المدارس وأساليب ذلك العصر » وما ظهر فيها من مقالات ونبد وملاحق كتب .. إلى أن نصل للفصل الختامي في الباب (ص ٨٨) حيث نرى « الروضة » « بين التلقف والتوقف » ، أما التوقف فيأتي بعد قرابة ثمانية أعوام عاشتها في خدمة العلم والثقافة .

والباب الثاني ، عن « الاتجاهات الأدبية والفنية » ، يبدأ بفصل تمهيدي تشبه فيه « روضة المدارس » بالبوقة التي تنصهر فيها كل العناصر العلمية والثقافية ، وهذا التشبيه ينطبق كذلك على رفاة ، فقد كان الرجل بوقة امتزجت فيها عناصر عدة ، شملت الأدب والفكر والاجتماع والعلوم

العسكرية والجغرافيا والتاريخ والاجتماع ..

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة

www.alukah.net

وتتتابع بعد ذلك فصول مختلفة تتعرض لبعض الجوانب الفنية ،
فالفصل الثاني موضوعه « بين المقامة والدراسة الأدبية » ، والفصل الثالث
يعرض الأنواع الأدبية في المجلة ، ويجيء فصل مستقل عن « حسين
المرصفي وحركة البعث في النقد العربي الحديث » .

أما الباب الثالث فيتناول « روضة المدارس بين اتجاهات العلم والفكر »
وفيه بسط بعض ألوان الدراسات الاجتماعية والجغرافية والتاريخية والفلسفية ،
وكذلك بعض موضوعات العلوم والطب والرياضة التي ظهرت بالمجلة .

ويأتي الباب الرابع ليحدثنا عن « أعلام الروضة وكتابها : حياتهم
ومصادر ثقافتهم » ، ومن هؤلاء الأعلام رفاة وعلي مبارك وعبد الله فكري
وعلي فهمي رفاة وصالح مجدي وعبد الله أبو السعود ومحمد عثمان جلال
وحمزة فتح الله وإسماعيل صبري ومحمد دياب وميخائيل عبد السيد والشيخ
علي الليثي والسيد علي أبو النصر . . . وعشرات غير هؤلاء ممن كان لهم
دور بارز في حياتنا الثقافية والعلمية .

وتجيء الخاتمة فتحاول أن تحدد « أثر روضة المدارس في الحياة
الأدبية والفكرية » ، فمن آثارها المباشرة أنها كانت « تلبى الحاجات الثقافية
والفكرية والروحية التي تحتاج إليها الأمة العربية في نهضتها وتحولها الحضاري » ،
ومن هذه الآثار « إثراء اللغة العربية بمجموعة من مصطلحات العلوم والفنون
نتيجة للترجمة والتعريب ، ونقل منجزات الحضارة الحديثة إلى العربية » ، كما
أن المجلة أسهمت أيضاً في تطوير الصحافة الأدبية بما خطته من تقاليد جديدة
واحتشاد علمي وأدبي وفني وإخراج جديد .

وتنتقل الخاتمة من التعميم إلى التخصص ، فتتناول بعض أوجه أهمية

« الروضة » ، فيما يتصل بميادين الأدب والنقد ، وفتح الريادة في مجالات الرواية والأقصوصة والمقال الأدبي والدراسات العلمية .

* * *

هذه خطوط سريعة عرضنا فيها لبعض مناحي هذه الدراسة الجادة الطلية الممتعة ، ولنا ، من بعد ، بعض ملحوظات :

● ينقل الأستاذ مهدي علام في التمهيد عن فيليب دي طرازي قوله « من دواعي الافتخار أن القطر المصري كان سباقاً في مضمار الصحافة العربية إلى نشر الجريدتين الأولين اللتين قرأهما أبناء الضاد ، وهما جريدة « التنبيه » التي صدرت في ٦ من كانون الأول سنة ١٨٠٠ في الاسكندرية ... وجريدة « الوقائع المصرية » التي ظهرت في كانون سنة ١٨٢٨ في القاهرة . »

والذي نظنه أن فيليب دي طرازي لم يذكر بالمرّة جريدة باسم « التنبيه » في كتابه « تاريخ الصحافة العربية » بل ذكر صحيفة أسماها « الحوادث اليومية » وقد استنتج اسمها استنتاجاً مما ورد في « عجائب الآثار » للجبرتي ، واستنتاجه جاء - على كل حال - في غير موضعه ، لأن الجبرتي ، في معرض حديثه عن الشيخ إسماعيل الحشاب ، يذكر أن « الفرنسية هينوه في كتابة التاريخ لحوادث الديوان وما يقع فيه كل يوم ، لأن القوم كان لهم مزيد اعتناء بضبط الحوادث اليومية في جميع دواوينهم وأما كن أحكامهم ، ثم يجمعون المتفرق في ملخص يرفع في سجلهم بعد أن يطبعوا منه نسخاً عديدة يوزعونها في جميع الجيش . . . فلما رتبوا ذلك الديوان كما ذكر كان هو المتقيد برقم كل ما يصدر في المجلس من أمر .. ولم يزل متقيداً في تلك الوظيفة مدة ولاية عبد الله مينو حتى ارتحلوا من الإقليم » .

من هذا النص استدل فيليب دي طرازي « أن الجبرتي روى عن إسماعيل الخشاب أنه كان يعتني بضبط « الحوادث اليومية » ويطلع منه نسخاً ويوزعها على جميع الجيش » ولست أدري ما جدوى نشره بالعربية يصدرها الشيخ الخشاب بالنسبة لضباط الحملة وجنودها الذين يجهلون العربية ؟ ونضيف أن دي طرازي (ومن تبعه) تحبب أيما تحبب بإزاء تلك الصحيفة المزعومة ؛ إذ نراه في موضع آخر من كتابه (٨٢/١) يقول : إن « أول جريدة عربية هي التي أنشأها نابليون الأول سنة ١٧٩٩ » ثم نراه بعد ذلك يتراجع عن رأيه (دون أن يصرح بذلك) فيورد قائمة بأولى الدوريات التي ظهرت في مصر ، ولا يذكر فيها شيئاً من أمر « الحوادث اليومية » أو « التنبيه » أو أي اسم آخر (انظر ١٦٢/٤) .

وسنعود إلى هذه القضية في مقال مستقل - إن شاء الله - تناقش فيه آراء مؤرخي الصحافة العرب والغربيين .

● وفي التمهيد نفسه ينوّه الأستاذ الدكتور مهدي علام كذلك بالترجمات التي قدمها المؤلفان ، وهو تنويه في موضعه ، لولا أنه يضيف « وبلغ من حرص المؤلفين على التعريف بهؤلاء الكتاب أنهم لم يتركوا أصحاب الوحدات » أي الذين لم ترد مساهمتهم على مقالة واحدة طول عمر المجلة .

وفي هذا القول شيء من المبالغة لأن المؤلفين لم يلتزموا بتقديم ترجمة لكل من كتب في « روضة المدارس » ولا يضير الدراسة في شيء أنها سكنت عن بعض الأسماء المجهولة وغير المجهولة ، من أمثال محمود وهبة (انظر ص ٦٩ من الكتاب) وعبد السلام سامي (ص ٧٠) وأحمد فتحي

(ص ٧٥) وسليم عمر الحنفي (ص ٧٦) ومحمد الطيب (ص ٧٦)
 ومحمد قناوى (ص ٧٧) وأحمد بليغ (ص ٧٨) ومحمود الحكيم (ص
 ٧٩) وعبد الحميد ثابت (ص ٧٩) وحسن محمود (ص ٨٣) بل إن
 الشيخ حسن العطار (أستاذ رفاة) يعقد محاورة هامة مع محمود صفوت
 الساعاتي ، الشاعر الشهير ، وتسجل المجلة هذه المحاورة (انظر الكتاب
 ص ١٦٢) ومع ذلك لا يقدم لنا الكتاب دراسة لآعن العطار ولا عن
 محمود صفوت الساعاتي (وليس لذلك تفسير ، خاصة حين نعرف أن للأستاذ
 محمد عبد الغني حسن كتاباً صغيراً غاية في الجودة عن الشيخ حسن العطار) .

● يتعرض الباب الأول لمسألة « تبويب مجلة روضة المدارس »
 ولعل المقام كان يتطلب تقديم صور لأغلفة ونسق صفحات بعض الأعداد ،
 وتسجيل ما إذا كان إخراج المجلة قد طرأت عليه تغييرات أم لا خلال
 أعوامها الثمانية .

ومما يتصل بهذه النقطة ما يذهب إليه بعض الدارسين من أن رفاة
 جعل « روضة المدارس » على نسق المجلة « الجريدة الآسيوية » ومجلة
 العالمين « اللتين قرأهما في باريس (ومن هؤلاء د . أنور لوقا في كتابه
 « الرحالة والكتاب المصريون في فرنسا في القرن التاسع عشر » - بالفرنسية) .
 ومن ذلك قول فيليب دي طرازي (تاريخ الصحافة ٧٠/٣) إنه
 بعد وفاة رفاة « عام ١٨٧٣ خلفه (ابنه علي فهمي) في إدارتها - روضة
 المدارس - فوسع دائرة مباحثها وزادها تحسناً) .

وكنت أود لو قارن المؤلف هنا بين « الروضة » والمجلات المعاصرة
 لها مثل مجلة « الوقائع المصرية » بعد أن أسند أمرها لرفاعة (في ١١ يناير

م (١٣)

١٨٤٢ الموافق ٢٧ من ذي القعدة سنة ١٢٥٧ هـ) ومثل مجلة « الجنان » التي ظهرت في بيروت سنة ١٨٧٠ .

ولم يذكر شيء عن عدد النسخ التي كانت تطبع من « روضة المدارس » ، وفي هذا المقال يفيدنا د . أحمد عزت عبد الكريم (في « تاريخ التعليم في مصر عباس وسعيد وإسماعيل » ، ص ١٥٣ ، ونقل عنه كثيرون مثل د . أحمد بدوي « رفاة .. » ص ٧٠ و د . عبد اللطيف حمزة « أدب المقالة » ١/١٢٦) أن ما كان يطبع منها ٣٥٠ نسخة ثم زيدت إلى الضعف بعد ذلك .

● يذكر المؤلف أن رفاة ترجم لفظة Journaux بـ « التذاكر اليومية » وهذا صحيح ، إلا أننا نضيف أنه في « تخلص الإبريز » لا يستقر على ترجمة نهائية للكلمة ، فهو تارة يتحدث عن « أوراق الوقائع » وتارة أخرى يبقى على كلمة جرنال كما هي (ويجمعها على جرنالات أو يذكر صيغة الجمع الفرنسية جورنو) ويورد أحياناً كلمة كازيطة (ويجمعها على كازيطات) فيشير إلى « كازيطات السياسات اليومية » وإلى « كازيطات العلوم اليومية والشهرية » .. الخ (وانظر في ذلك د . محمود فهمي حجازي في « أصول الفكر الحديث عند الطهطاوي » ص ٤٩٩) .

● في ص ٧٧ : « وتقلُّ مجلة عن مجلة هو الآن - كما كانت من زمان - جائز مباح ، على شرط أن تذكر المجلة أو الصحيفة المقول عنها » وأظن أن في الجملة شيئاً من المبالغة ، فلمؤلف حقوق ، والنقل تحكمه شروط .

● في ص ٨٣ تقرأ : « . . . » وهذه الملاحق (ملاحق « روضة

المدارس « تذكريا بما كانت تصدره مجلة « المقتطف » من ملاحق وهدايا ..
من مثل « عائشة التيمورية » لمي زيادة » .

ولا نظن أن دراسة مي عن التيمورية صدرت في شكل ملحق أو هدية عن دار « المقتطف » أو غيره ، ولكن دراسة مي هذه نشرت على حلقات في المقتطف ، ولم تطبع على شكل كتاب إلا في الخمسينات ، ضمن سلسلة « كتاب الهلال » . وما بالننا نكتفي بالظن والأستاذ محمد عبد الغني حسن نفسه يقول في كتابه عن « مي أدبية الشرق والعروبة » ص ١٢٩ :
« وتتعرف مي في كلمتها في تأييد الدكتور يعقوب صروف بفضلها عليها وتشجيعه لها على دراسة هاتين الأدبيتين - باحثة البادية ووردة اليازجي -
بما شجعها على متابعة الكتابة عن عائشة التيمورية في سلسلة من المقالات في « المقتطف » لم ينتظمها إلى اليوم كتاب واحد » .

● في ص ١٣١ تطالعنا أرجوزة مزدوجة منها :

أمر النبي المصطفى بالطاعة والسمع للسلطان كل الأمة
فاطاب رضا السلطان واعلم أنه عز من الله الكريم وظله

وهذا النوع من النظم تلتزم فيه قافية موحدة في كل شطرتين ،
ولا توافق بين « الطاعة » و « الأمة » .

● يرى د. الدسوقي (ص ١٥٣) أن مقامات صالح مجدي « تعتبر بكل المعايير الفنية والفكرية ريادة حقيقية لفن الأقصوصة في لغتنا العربية »
ولسنا نرى في هذه المقامات أكثر من إرھاصة أو محاولة للتخلص شيئاً ما من قيود المقامة ، والاقتراب خطوة من مفهوم « الأقصوصة » ، وإذن فلا بأس من مصطلح « المقامة الأقصوصة » الذي يطرحه د. الدسوقي ،

ولكننا لا نستطيع أن نذهب إلى حد القول بأن صالح مجدي بمقاماته الاثنتي عشرة « يعتبر رائد الأقصوصة العربية الحديثة » ، وباليت د . الدسوقي يجمع هذه المقامات ويقدم لها بدراسة فنية تحليلية ، فرجما يدفع نشرها إلى إعادة النظر في أمرها .

● في ص ١٦٢ : يرد ذكر لمصطفى الساعاتي ، و صواب الاسم « محمود صفوت بن مصطفى . . الساعاتي (وانظر عنه عمر الدسوقي في الجزء الأول من « في الأدب الحديث » ص ١٢٤ - ١٣٦) .

● في ص ١٧٦ يذكر اسم « شهاب الدين » في معرض الحديث عن الشيخ عثمان مدوخ ومقالاته في الأغاني والألحان .

ونضيف أن شهاب الدين (محمد بن إسماعيل) يعتبر أول من اهتم بالأغاني والألحان في هذه الفترة ، و كتابه « سفينة الملك » يضم عدداً ضخماً من الأدوار والتواشيح والأشعار المغناة ، وقد صدرها بمقدمة تعتبر من الوثائق الأساسية عن الموسيقى في مصر في منتصف القرن التاسع عشر .

● في ص ٣٢٥ اضطراب مطبعي فبعد السطر الرابع عشر ينبغي الانتقال إلى السطر العشرين من الصفحة التالية ، ونهاية ص ٣٢٧ يتمها السطر الخامس عشر وما بعده من ص ٣٢٥ .

● في ص ٣٤٤ نضيف إلى قائمة مؤلفات صالح مجدي كتاب « حلية الزمن بناقب خدام الوطن » في سيرة رفاة الطهطاوي ، وقد حققه د . جمال الدين الشيبان ، سنة ١٩٥٨ ، ويعتبر أهم المصادر في دراسة حياة الطهطاوي وإنتاجه .

● في ص ٣٤٦ قائمة بمؤلفات عبد الله أبي السعود من بينها كتاب يحمل عنوان « قناسة العصر في صلاحية تاريخ مصر » والاسم الصحيح هو « قناسة أهل العصر من خلاصة تاريخ مصر ». وفي القائمة أيضاً كتاب عنوانه « الدار التام في التاريخ العام » والصحيح « الدرس التام . . » ونضيف أن مكتبة بلدية الاسكندرية تضم عدداً لا بأس به من مخطوطات مؤلفات عبد الله أبي السعود .

* * *

ولا ينبغي أن يقف بنا الحديث عند هذا القدر ، بل ينبغي الإشارة في الوقت نفسه إلى بعض مناحي الجودة ، وما أكثرها هنا ، فالعمل شاق ومشعب ، ولكن المؤلفين قبلا التحدي وراحا يجمعان المادة العلمية في أناة وحذر ، حتى استقام البناء بعد لأي ، وإذا بنا أمام دراسة تمتع القارئ العام وتفيد الدارس المختص . ولقد كنت في الآونة الأخيرة عاكفاً على ترجمة « فن الشعر » لبوالو ، وكنت أظن أن هذا الأثر لم يترجم للعربية من قبل ، إذ لم نسمع بأمرها في كل المراجع الأساسية عن أدبنا المعاصر ، حتى وصلت إلي هذه الدراسة وإذا بها تحمل إلينا أن الأديب الشهير محمد عثمان جلال ترجم « فن الشعر » ترجمة تتميز بما هو مألوف عنده من ظرف ورشاقة ، غير أنه - كما تسجل الدراسة - لم يتقيد بالأصل الفرنسي فهو يستعمل الترجمة بقوله :

لا تحسب المرء يكون ناظماً ولا يعدّ في القوافي عالماً

ولا يكون في القريض عدّه يعرف جزر بحره ومدّه

أما مستهل "نص" بوالو فيقول :
 « على ذرى البارناس كان شاعر جسور .
 يدبر الفكر - بلا طائل - في فن الشعر وإلى أي مدى يسمق
 وفي ما إذا كان لا يحس قط بالإلهام الخفي يأتي إليه من السماء
 وما إذا كان نجمه حين الميلاد لم يصغ منه شاعرا
 أو أنه سيبقى على الدوام أسيراً لكلال موهبته
 ويفكر فيما إذا كان (فيوس) - أبولو - لن يعيره إلا
 أذنأ صماء .
 وفيما إذا كان (بيجاز) - ملاك الشعراء الموهوبين - سيبقى
 حروناً معه » .

* * *

ولقد جاء عرض النتائج - في خاتمة البحث - متواضعاً بعيداً عن
 الإدعاء ، وبحسب الكتاب أنه قدم دراسة تحليلية نقدية عميقة لمجلة « روضة
 المدارس » ، وأنه أزاح النقاب عن كنوز كانت مجهولة وأشار إلى مبادرات
 هامة في ميادين العلم والثقافة ، وعرض لسير عشرات من أعلام النهضة في
 بلادنا عرضاً رصيناً يجمع بين السهولة والدقة العلمية .
 وبحسب هذه الدراسة أنها سلطت الأضواء على بعض النصوص الهامة
 لحسن العطار ورفاعة وعلي الليثي وعثمان جلال ، وهي نصوص ما كان
 ليتهدي إليها الباحثون لولاها .
 ولعل هذا العمل يكون فاتحة لدراسات على نسقه ، تتناول كبريات
 مجلاتنا الثقافية كالللال والمقتطف والزهور وأبولو والرسالة والثقافة وغيرها .